7 أدب النثر.. مرحلة النضج

يستكمل هذا الفصل الحديث الذي بدأناه في الفصل السابق، وهو وصف تطور الرواية والقصة القصيرة من ثلاثينيات القرن العشرين حتى عام 1967م، حين حدث تغير في المزاج العام في العالم العربي الذي انعكس على معظم الكتابات العربية الروائية والقصصية. ومثل جميع التقسيمات فإن نقطة الفصل بين ما سميته «مرحلة التطور» و«مرحلة النضج» هي نقطة اعتباطية، وقد تكون أكثر اعتباطًا في حالة الشعر العربي الحديث، الذي يمكن تقسيمه بوضوح إلى ثلاثة أساليب مختلفة إن لم يكن ثلاث مراحل مختلفة. والواضح، أنه بين وقت وآخر تظهر أعمال فردية أو مؤلفون يكونون علامة على تحول في المواقف المعاصرة، أو يقودون إلى مرحلة جديدة من التطور. فرواية محمد حسين هيكل «زينب» التي نوقشت في الفصل السابق نُظر إليها عالميًّا تقريبًا على أنها علامة فارقة، على الرغم من أن إجماعًا أقل ربما يوجد بين النقاد لعمل مماثل من بدايات ثلاثينيات القرن العشرين، وهناك بعض الشك في أنه ظهر تطور رئيس في التقنية الروائية المصرية والعربية خلال تلك الحقبة، ويبدو لي أن هذا التطور يتضح في نشر جزأي رواية توفيق الحكيم الرئيسة «عودة الروح»، عام 1933م، سأبدأ بهذا العمل.

على الرغم من أن شهرة توفيق الحكيم المستمرة تعود بلا شك إلى مسرحياته أكثر منها إلى رواياته، لكنه يبدو لي في الحقيقة، بدءًا برواية «عودة الروح»، أنها تحتل مكانًا مماثلًا في الأهمية لتطور الأدب العربي الحديث عمومًا. بدأ الحكيم بالفرنسية خلال مدة دراسته في باريس من عام 1925م إلى عام 1928م[1]، وكتبت «عودة الروح» على مثال تجارب المؤلف في القاهرة

خلال الحرب العالمية الأولى، وهي بذلك سارت في اتجاه السيرة الذاتية الذي كان منتشرًا في التطور المبكر للرواية العربية الحديثة، كما لاحظنا في الفصل السابق. والعمل في جوهره يصف حياة الحب المحبط لعائلة مصرية من الطبقة الوسطى لتلك الحقبة، ويتصاعد في عام 1919م مع الثورة المصرية الجماهيرية التي قادها سعد زغلول، والتي تمثل للحكيم «عودة الروح» عنوان العمل. ويعاني العمل عددًا من الأخطاء من الناحية البنائية، من ضمنها الميل إلى الاستطراد المشتت الذي يشكل كثيرًا من أعمال الحكيم: وأجزاء طويلة من الجزء الثاني مكرسة لمناقشة طبيعة الفلاح المصري الذي يَعُدُّهُ الحكيم منحدرًا مباشرة من بناة الأهرامات، وإن وصف ثورة 1919م في الصفحات الأخيرة للرواية أُدخل دون ترتيب إلى بقية العمل. وأكدت نهاية الرواية سمعتها بوصفها عملًا وطنيًّا؛ كونها نالت استحسان الرئيس المصري عبدالناصر من بين أعمال أخرى. وكون العمل يمثل الروح الجديدة للوطنية المصرية، فإنه استمر في ملامسة وتر حساس في قلوب المصريين حتى هذا اليوم[2]، ولكن العمل يمكن قراءته على مستويات عدة: صورة لحياة مصر المعاصرة، وبوصفه رواية للحب المراهق، ومثالًا لموضوع مقارنة «المدينة والريف» الذي كان قد بدأ بالظهور في الأدب العربي، أو بوصفه مساهمة في التعبير عن التفسير «الفرعوني» لدور مصر في العالم، الذي أعطي زخمًا باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون عام 1922م.

كتب توفيق الحكيم بعد «عودة الروح» ثلاث روايات[3] أدى فيها عنصر السيرة الذاتية دورًا واضحًا. وأولى هذه الروايات هي رواية «يوميات نائب في الأرياف» التي نشرت عام 1937م، وهي أيضًا الأكثر نجاحًا لأسباب عدة، ليس أقلها أن المؤلف تجنب تمامًا ميله إلى النقاش «الفلسفي» المطول، الذي لوَّن

الوحـدة الفنية لمعظم أعماله. وتأخـذ الرواية من تجارب المؤلف بوصفه نائبًا في منطقـة الدلتـا المصرية، وتبرز صورة سيئة للظـروف المعيشية في الريف، والنظـام القانـوني المبنـي على قوانـين نابولونيـة. وهناك هـوة شاسعة بين افتراضـات وعقلية السارد القادم مـن المدينة، الذي أوكلت إليه مهمة تطبيق هـذه القوانين، وبـين الفلاحين الذين سيطبق عليهم هـذا القانون، وهي هوة تذكر بتقسيم «المدينة مقابل الريف» في القصة القصيرة المهمة للكاتب لاشين «في القرية» التي ناقشناها في الفصل السابق[4].

والتركيبـة المحـددة مـن النقد الجـاد والاجتماعـي والأسلـوب الأدبي المتمكـن في «يوميات نائب في الأرياف» نـادرًا ما تجاوزها عمل أدبي في الأدب العربـي الحديـث. ولسوء الحـظ، فإن أي توجـه لوضع تقليد قـوي من النقد الاجتماعـي سريعًا مـا كذب برواية الحكيـم اللاحقة «عصفـور من الشرق» (1938م) التـي علـى الرغم من أنهـا نشرت بعد «يوميات نائـب في الأرياف» ولكنهـا تنهـل من حقبة سابقـة في حياة المؤلـف. ويستكشف العمـل الصراع بـين الشـرق والغـرب – وهو موضوع ظهـر منذ عـام 1834 – 1835م في كتاب الطهطـاوي «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» مـن خلال تجارب محسن، وهو طالب مصري في باريس، ويبدو واضحًا أنه رسم على شخصية الحكيم. ويتفاعـل العمل علـى مستويين: على المستوى العملـي، من خلال حظ محسن السيـئ في علاقـة الحب مع الفتـاة الفرنسية سوزي، وعلـى المستوى الجدلي مـن خلال نقاشاته مع المهاجر الروسي إيفان. وكان التفسير الدقيق لمضامين هـذه النقاشات موضوعًا لجدل كبـير، ولكن أيًّا كان التفسـير، فإن العمل له أهمية كبيرة، على الرغم من أخطائه الفنية، ويقدم مثالًا على «الشرق مقابل الغرب» الذي شكل تقليدًا أدبيًّا في الأدب العربي الحديث عبر كثير من مراحل

تطوره. وأكملت رواية «الرباط المقدس» (1945م) سلسلة الروايات المبنية على حياته، راسمة صورة «لبرج عاجي» فكري، والرواية تتلون بتشويه استبطاني يحاذي الانعكاس الذاتي، وربما من المريح أن المؤلف هجر كتابة الرواية، ما عدا «حمار الحكيم»، وكرس طاقته الفنية الرئيسة للمسرح.

ينتمي إلى هذه المرحلة من تطور الرواية المصرية مجهودات محمود طاهر لاشين الذي سبق ذكره في الفصل السابق، وتبحث روايته الوحيدة «حواء بلا آدم» (1934م) موضوع صراع الطبقات، وبحث المرأة المتحررة عن أشكال جديدة من العلاقات مع الرجال. فشل حواء في حل الصراع في حياتها الخاصة بين الثقافة التقليدية والأفكار الأكثر تطورًا، التي بدأت تتسرب إلى العالم العربي لا تؤدي فقط إلى انتحارها في النهاية، ولكن من الواضح أيضًا أنها تعكس تشاؤم المؤلف من تطور التوجه العام. وبدا أن لاشين بعد «حواء بلا آدم» قد هجر تقريبًا نشاطه الأدبي ما عدا مجموعة قصصية كتبها بعنوان «النقاب الطائر» (1940م)، ولم ينشر أي شيء بعد ذلك حتى وفاته عام 1954م. وشخصية أدبية متميزة أخرى هي «عباس محمود العقاد» (1889م- 1964م)، وهو أحد الرجال الأدباء المصريين البارزين في النصف الأول من القرن العشرين، وتتحدث روايته الوحيدة «سارة» (1938م) مرة أخرى حول علاقة حب غير مكتملة[5]. ويعاب على الرواية التحليل المفرط والتعبير التجريدي، والرواية من وجهة نظر أدبية حالية لها أهمية تاريخية، ولكن نشرها مهم بوصفه علامة على المدى الذي جذب فيه الشكل الروائي اهتمام الرواد الأدباء في ذلك الوقت، وتؤكد الاتجاه الغالب للسيرة الذاتية في كتابة الرواية في ذلك الوقت.

وفي نهاية ثلاثينيات القرن العشرين وبدايات الأربعينيات بدأت الرواية

المصرية تأخذ مكانًا جديدًا، (ويظهر ذلك في تأسيس سلسلة جديدة من المسابقات في كتابة الرواية في عام 1941م)، وتتسم باتجاهات عدة. ولد الكتاب الرواد من الجيل القديم مثل توفيق الحكيم وطه حسين والعقاد والمازني في مدد متقاربة من بعضهم في نهاية القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من بعض الاختلافات في النظرة العامة والحدة، ولكنهم يتشاركون في مواقف عدة. وتولدت هذه السمات المشتركة بلا شك من تجارب شبابهم خلال المدة ما بين تمرد عرابي عام (1881 - 1882م) وثورة زغلول عام 1919م، والجيل الثاني أقل تجانسًا عن الجيل السابق له من الكتاب، أخذ كتاب الجيل الثاني موضوعاتهم من فساد السياسة المصرية مدة الحرب بدلًا من تفاؤل ثورة 1919م، وبدأ إنتاج أعمال تتسم بواقعية جديدة. وفي مفارقة، كان هذا الاتجاه مترافقًا بحماس مع الموضوعات التاريخية في محيط فرعوني أو جاهلي أو في حقبة صدر الإسلام.

ومن ضمن الكتاب الذين يمكن ذكرهم في هذا السياق عادل كامل (1916 ـ ...م) ولويس عوض (1915 – 1990م). وتمثل روايتا عادل كامل، محامي ممارس، الاتجاهين اللذين ذكرناهما. فازت روايته الأولى «ملك من شعاع»، المأخوذة من حياة الفرعون إخناتون، بجائزة كتابة الرواية التي نظمتها أكاديمية فؤاد الأول عام 1942م. أما روايته الثانية «مليم الأكبر»، وبعكس الأولى، حاولت استكشاف البنية الطبقية للمجتمع المصري المعاصر من خلال حياة شابين من خلفيتين اجتماعيتين مختلفتين، ولكن النتيجة لم تكن مقنعة، وربما ليس مستغربًا أن العمل لم يَفُزْ بجائزة في مسابقة عام 1944م. من الواضح أن المؤلف أصيب بخيبة أمل مثل لاشين؛ لعدم نجاح روايته، وترك الاهتمامات الأدبية مكرسًا نفسه للقانون[6]. أما لويس عوض، وهو معاصر قريب من عادل كامل، ويشترك معه في الخلفية النصرانية،

فقد أصدر رواية واحدة طويلة «العنقاء» أو «طريقة حسن مفتاح» كتب جزءًا منها في القاهرة 1946 – 1947م، وجزءًا في باريس، وهي بحق رواية ثورية، وتستكشف البنى الطبقية والنشاط السياسي من خلال عين الماركسي حسن مفتاح. ووصفت الرواية بأنها «علامة في الأدب العربي الحديث، وبأنها من أكثر الروايات عنفًا في التعبير بين الروايات الصادرة من مصر»[7]، ولأسباب واضحة لم تنشر في مصر حتى عام 1952م بعد ثورة الضباط الأحرار، ولكنها تستحق أن تعرف على نطاق أوسع؛ كونها أحد الأمثلة القليلة للأدب المعاصر والتوجه العام المتفجر للبلد في الحقبة بين الحرب العالمية الثانية واستيلاء الضباط الأحرار على السلطة عام 1952م. وعلى الرغم من أنه لم يكتب روايات طويلة أخرى، لكن مساهمته في الحياة الأدبية المصرية، التي تمتد أكثر من نصف قرن، كانت رئيسة بكل المقاييس، ومن ضمن إسهاماته ديوان من الشعر الحر الطليعي «بلوتولاند وقصائد أخرى» (1947م)، وأيضًا سيرة ذاتية مكتوبة باللهجة المصرية المحكية «مذكرات طالب بعثة» (1965م)، إضافة إلى عدد كبير من الأعمال النقدية المحاربة للتقاليد غالبًا، وترجمات لأعمال شكسبير وت.س.إليوت وآخرين.

«القارئ الشعبي» والرواية الرومانسية

ربما يكون من المستحسن أن نعطي تحذيرًا عند هذه المرحلة. إذا كان النقاش السابق يشير إلى أن هذه الحقبة كانت ممتعة من ناحية الإنتاج الأدبي التجريبي، وهذا بحد ذاته حقيقة، فالقارئ العادي، سواء في مصر أو في أي مكان آخر، كان في الغالب يقرأ في معظم الحقب التي ذكرناها، إن لم تكن الترجمات، فمن المحتمل القصص القصيرة والروايات من النوع «الشعبي» أو «الرومانسي». وهذا النوع من الروايات والقصص القصيرة، التي لأسباب

مثيرة للشك، مع أنها واضحة، أخذت اهتمامًا بسيطًا من النقاد، لها مقابل في السياق الغربي، في بعض المستويات على الأقل، وهي تمثل بشكل كبير استمرارًا لتقليد الترجمات والاقتباس من الأعمال الأوروبية المرغوبة التي بدأت في القرن التاسع عشر.

ومثال رائع للتداخل بين هذين المسارين، وأيضًا للتحولات والانعطافات التي أخذها الإرث الأدبي المصري بشكل عام، تمثله أعمال إحسان عبدالقدوس (1919 – 1990م) ابن فاطمة اليوسف المعروفة بروزاليوسف (ولدت 1895م) التي عملت في الأساس ممثلة مع عزيز عيد وجورج أبيض[8] قبل أن تهجر المسرح، وتؤسس عام 1925م المجلة السياسية الساخرة «روزاليوسف»، وهذه المجلة نشرت إضافة إلى موضوعاتها الخفيفة، مساهمات مؤلفين لامعين مثل المازني والعقاد ومحمود تيمور، ثم تولى إدارتها ابنها إحسان عبدالقدوس عام 1945م، وأممت عام 1960م، واستمرت في الصدور حتى الآن. وبالنسبة لإحسان عبدالقدوس فإنه بعد أن أصبح يدير المجلة بدأ يعير اهتمامًا متزايدًا للروايات الرومانسية المرغوبة والقصص القصيرة، التي كتب منها عشرات المجلدات. ومن بين أهداف هذه الأعمال الأدبية والاجتماعية المعلنة الرغبة في تحطيم المحرمات التي يمكن طرحها في الأدب العربي، وتبدو بعض كتاباته مصوغة بوضوح لإثارة نقاش عن موضوعات حقوق المرأة في المجتمع المصري المعاصر. وتميل كتاباته أحيانًا إلى العاطفة، ولكن هذا لم يمنع كتبه من الحصول على شعبية كبيرة؛ وجد استفتاء نظمته الجامعة الأمريكية في القاهرة عام 1954م أنه «أكثر الكتاب الأحياء شعبية في اللغة العربية[9]»، ومازالت كتبه تحظى بشعبية كبيرة بين القراء، ليس فقط في مصر، ولكن في جميع أنحاء العالم العربي، كما أنها توفر مادة جاهزة لصناعة الأفلام

المصريـة. ومن الكتاب الآخرين الذيـن يمكن تصنيف أعمالهم بشكل مماثل لأعمـال إحسان عبدالقدوس محمد عبدالحليم عبدالله (1913 – 1970م)[10] الـذي تجمع أعماله بـين الاهتمام الرومانسي والكتابـة الاجتماعية، والكاتب غزيـر الإنتـاج. يوسـف السباعـي (1917 – 1978م) الـذي تقلـد عـددًا من الوظائف المهمة بما فيها منصب وزير الثقافة، وفي الوقت نفسه نشر عشرين مجموعـة قصصية، وست عشرة رواية، وأيضًـا مقالات ومسرحيات عدة[11]. وعلـى الرغم، مع بعض الاستثناءات، من أن هؤلاء الكتـاب لم يحصلوا على اهتمام نقدي كبير في الكتابات المعيارية للأدب العربي الحديث، لكن أعمالهم استمرت في أخذ نصيب كبير من اهتمام القارئ العربي العادي، وهناك جدل قائم بأحقيتهم في دراسة أكبر.

الرواية خارج مصر

علـى الرغـم مـن استمـرار سيطـرة الكتـاب المصريـين علـى الإنتاج القصصـي العربي، ولكنـه في نهاية ثلاثينيات القـرن العشرين ظهر اهتمام متزايـد مهم تجاه الشـكل الروائي في أنحـاء العالم العربـي خاصة في لبنان وسوريـا والعراق. وبغض النظر عـن الدور الحيوي الذي أدتـه سوريا ولبنان في نهضـة القـرن التاسع عشر، لكـن النشاط الأدبي في هذيـن البلدين يبدو أنه عانى شيئًا مـن الخفوت خلال العقود الأولى من القرن العشرين. وليست واضحـة تمامًـا أسباب هـذا الخفوت، علـى الرغم من أن هجـرة عدد كبير مـن أشهر المثقفين إلى مصر والأمريكتـين كان بلا شك أحد الأسباب. وعلى أي حـال، لم تظهـر روايـة لبنانيـة ذات جودة ومتعـة يمكن مقارنتهـا بإنتاج ثلاثينيـات القرن العشرين في مصر التي سبق الحديث عنها إلا عام 1939م. وشهـدت أوائل ثلاثينيات القرن بداية انتعاش النشاط الثقافي والأدبي خاصة

في بيروت، وبدأت مجموعة باسم «الأصابع العشرة» بضخ الحياة إلى أماكن المدينة الثقافية المعروفة، مدفوعة بأمثلة شعراء المهجر وغيرهم. ومن الذين كانوا يرتبطون بقوة مع هذه المجموعة توفيق يوسف عواد الذي كان قد عرف بعد نشره مجموعتين قصصيتين «الصبي الأعرج» (1937م)، و«قميص الصوف» (1937م)، وحين ظهرت روايته «الرغيف» (1939م) ميزته بوضوح بوصفه مؤلفًا ذا موهبة كبيرة. ومن الواضح أن العمل تأثر بالقومية العربية المعاصرة، فالعمل يتحدث عن زمن ثورة 1916م ضد الأتراك، ولكن مثل بعض الروايات المصرية التاريخية المذكورة سابقًا، لا يخفي الزمن التاريخي الروائي علاقته بزمن عواد، ولعل هذا القرب إضافة إلى ميزة العمل الأدبية كانا السبب في شعبيته. ولسوء الحظ، يبدو أن عواد، الذي عمل مدة من حياته دبلوماسيًّا، كان يفتقر إلى الإخلاص العميق لشكل الرواية الذي نجده عند نجيب محفوظ على سبيل المثال، ولم ينجح في اقتناص التوجه السائد مرة أخرى إلا عام 1972م في رواية «طواحن بيروت»، وهي وصف تصويري لمجتمع بيروت المتفكك إبَّان يونيو 1967م، حيث حقبة الحرب العربية - الإسرائيلية وانفجار الحرب الأهلية اللبنانية عام 1975م[12].

ومن بين الكتاب الآخرين الذين اشتهروا في ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته في لبنان، وارتبط كثير منهم بمجموعة «الأصابع العشرة» أو بالمجموعة التي جاءت بعد «الأصابع العشرة» بمدة بسيطة «النادي اللبناني» (1946م- 1966م)، حيث نجد الروائي وكاتب القصة القصيرة خليل تقي الدين (1906م- 1987م) والشاعر سعيد عقل (1912م)[13] والناقد والروائي مارون عبود (1886م- 1962م) الذي أهله إنتاجه الضخم لأكثر من خمسين كتابًا ليكون أحد أكثر الأشخاص تأثيرًا في الحياة الفكرية والثقافية اللبنانية

في وقته. وتحظى دراسته عن الشعر اللبناني العامي «الزجل» التي بعنوان «الشعر العامي» (1968م) بأهمية خاصة. وينتمي إلى هذه البيئة الفكرية التي جعلت بيروت تحتل دور العاصمة الثقافية (وأيضًا المالية) للشرق الأوسط في الحقبة اللاحقة للحرب العالمية الثانية، سهيل إدريس، الذي يذكر دائمًا مرتبطًا بالمجلة «الملتزمة» الأدب - وهي واحدة من دور نشر عدة، ومجلات أُسست في بيروت في تلك الحقبة. وإضافة إلى دوره بوصفه ناشرًا فإنه أسهم أيضًا في مجال الرواية والقصة القصيرة، خاصة روايته المشهورة «الحي اللاتيني» (1954م). وهذه الرواية تقف في خط مستقيم منحدر من أعمال مماثلة لأعمال طه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهما[14] عن موضوع الصراع الثقافي الذي يعيشه «الطالب العربي في أوروبا». ثم أتبع هذه الرواية بروايتين «الخندق الغميق» (1958م) و«أعصابي أنا التي تحترق» (1962م)، وكلا العملين، وهما في جزء منهما سيرة ذاتية مثل الحي اللاتيني لم يصل أي منهما إلى الشهرة المستحقة للعمل الأول.

ونموذج آخر مماثل للتطور الذي رأيناه في مصر - من الترجمات المبكرة، التقليد والتجربة، ومن خلال الرواية التاريخية إلى الرواية الناضجة بالأسلوب الغربي - يمكن أن نرى ذلك أيضًا في سوريا، حيث نجد أن الأعمال الرائدة لفرانسيس مرعش (1836 - 1873م) الذي أثر أسلوبه النثري الشعري على جبران خليل جبران، تبعتها الروايات التاريخية لمعروف أحمد الأرناؤوط (1892 - 1948م) التي نشرت بين الأعوام (1929م و1942م)، وجمعت الروايات الأربع لاحقًا، وأعيد نشرها تحت عنوان «الملحمة الكبرى». ولجهود شكيب الجابري (1912 - 1996م) أهمية عظيمة في تطور شكل الرواية عمومًا. وينظر إليه على أنه مؤسس الرواية السورية الحديثة، وتقع أحداث

روايتـه الأولى «نهم» (1937م) في ألمانيا، ومثل كثير من الأعمال التي سبق أن ناقشناها في هذا الفصل، تعتمد بشكل كبير على تجربة المؤلف في أثناء حياته خارج وطنه شابًا. واستكملت رواياته اللاحقة «قدر يلهو» (1939م)، و«قوس قـزح» (1946م) والأخيرة «وداعًا يـا أفامية» (1960م) هـذه الفكرة العامة، وكل رواية تهتم بجانب مختلف من التوتر بين «الشرق» و«الغرب» على المستوى الشخصي وعلى المستوى الوطني أكثر، ولكنه يبدو أنه لم يحصل أيٌّ منها على مكانة «نهم» بوصفها علامة مميزة في تطور الأدب الروائي السوري الحديث.

ورأت نهايـة ثلاثينيات القـرن الماضي في العراق أيضًـا خطوات رئيسة في تأسيـس تقليد روائي مع إصدار روايـة «الدكتور إبراهيم» لذي النون أيوب (1908م- 1988م). والرواية ترسم صورة واضحة لشاب عراقي محظوظ يعود إلى وطنـه بعد مدة مـن التعليم في بريطانيا. وهدف المؤلف، مثل هدف يحيى حقـي في «قنديل أم هاشم» كان واضحًـا، إذ يظهر تأثير التعرض «للحضارة» الغربيـة، ولكن العمل يفتقر تقريبًا إلى حـدة ذهن رواية حقي التي ناقشناها سابقًـا. وكتب المؤلف رواية أخرى هي «اليـد والأرض والماء» (1948م) يصف فيهـا النزاع بين الفلاحين وملاك الأراضـي، ولكن معظم إنتاجه الأدبي أخذ شـكل القصة القصيرة بدلًا من الروايـة الطويلة، وكثير من قصصه نشر في صحيفة الموصل التي كان يحررها من عام 1938 إلى 1944م.

وفي شمـال إفريقيـا شهدت الحقبة نفسها أيضًا ظهـور الكاتب التونسي محمـود المسعـدي (1911 - 2005م)، ويمثـل عملـه الممتـد «السـد» - أحيانًا يصنـف على أنـه مسرحيـة - مساهمة فريـدة، إن لم تكـن ذات خصوصية قليلًا، لهذا الفن[15]. وشهدت هذه الحقبة ظهور عدد من كتاب شمال إفريقيا الآخريـن، منهـم علـي الدعيجـي (1909 - 1949م)، ويعـرف أحيانًـا باسم

«أبـو القصة القصـيرة التونسية»، الذي فجر عمله «جولـة بين حانات البحر المتوسـط (1935م) أرضًا جديدة بأسلوب واضـح وحيوي ممتع (على الرغم مـن أن عنوانها يضعهـا في تقليد مؤسس جاهز). وشهـدت ثلاثينيات القرن نمـو النشاط الأدبي مع صدور الدورية الأدبية «العالم الأدبي»، وظهور التجمع الأدبـي الـذي يجتمع في مقهى «تحـت السور»، وكان لعلـي الدعيجي علاقات قويـة مع الناشطين. وبغض النظر عن هذه التطـورات والمقابل لها في المغرب والجزائـر، بقي صحيحًا بشكل عام أن تطـور الأدب الراقي باللغة العربية في المغرب – مع الاستثناء البارز للشاعر التونسي الشابي[16] – يسير خلف العالم العربـي الشرقي لمعظـم النصف الأول مـن القرن العشريـن، وغالبًا (وليس تمامًـا) بسبـب سيطرة الثقافـة الفرنسية واللغـة الفرنسيـة. وكما لاحظنا، عمومًـا لم تأخـذ الكتابـة باللغـة العربية اهتمامًـا كبيرًا إلا بعـد الاتجاه إلى الاستقلال عن الفرنسية في خمسينيـات القرن العشرين، وبدأت دول المغرب تدلي بمساهمة متميزة في تطور الأدب العربي عامة.

نجيب محفوظ

وكما رأينا، أن عادل كامل بدأ عمله الروائي القصير بالرواية التاريخية قبـل أن يتحول إلى موضوع له علاقة مباشـرة بالعصر، فالنموذج نفسه نراه في مسـيرة «عبدالحميد السحار» (1913 – 1974م) التي أعقبت روايته الأولى الفرعونيـة «أحمسـ بطل الاستقـلال» (1943م) روايتـان: «في قافلة الزمن» (1947م) و«الشـارع الجديـد» (1952م). وكلا العملين يصفان حياة عائلات مصريـة من خلال أجيال عدة[17]. وربما الأكثر أهمية، أعمال نجيب محفوظ الأولى (1911 – 2006م)، وهـو أحد أكثر المؤلفين المصريين إنتاجًا، وقد يكون أيضًـا الأشهر من بين كتاب الخيال الأدبي العربـي على المستوى الدولي، بعد

فـوزه بجائزة نوبل لـلأدب عام 1988م. ولـد في حي قـديم بالقاهرة، ودرس الفلسفة في جامعة القاهرة، وترك الدراسة العليا في التخصص نفسه مع نمو اهتمامـه بالأدب، وهذا التحول في جزء منه من تأثـير سلامة موسى. وتكون إنتاجـه الأول من مجموعـة قصصية، واستمر في كتابـة القصص القصيرة طـوال حياته، ولكن شهرتـه قامت بشكل رئيس على رواياته التي نشر منها ما يفوق الثلاثين رواية. ومسيرته العملية هي مثال تصويري للمقولة المكررة بأن قلة، إن وجد أحد، من الكتاب في العالم العربي الحديث قادر على الحياة من دخل الكتابة فقط. وفي عام 1939م انضم إلى الخدمة المدنية الحكومية، ومنذ ذلـك الوقت حتى تقاعده في أوائـل سبعينيات القرن العشريـن قسم طاقاته بين الكتابة الإبداعية والخدمة الحكومية المكتبية، عمل بعض الوقت في وزارة الأوقـاف، ومنـذ عام 1954م عمل في وزارة الثقافة، فقـد اشتغل بالتحديد في قطـاع السينمـا، ومن هناك أخـذ أعمالًا من كتاب مثل إحسـان عبد القدوس ويوسـف السباعي وآخرين موضوعات لأفلام. ولأعمـال محفوظ أهمية ليس فقـط لأحقيتها ولكن أيضًا، مثلها مثل أعمال توفيق الحكيم في قطاع المسرح؛ لأنهـا خدمت بوصفها نوعًا من البارومتر لقياس تغير الأذواق والأولويات في الحياة بشكل عام.

إنتـاج نجيب محفـوظ الهائل مـن الروايات الطويلة يعـود إلى تنظيمه الشخصـي واهتمامه بالتفاصيـل الدقيقة لوقت عملـه. وروايته الأولى «عبث الأقدار» (1939م)، وهي رواية تاريخية يعود الفضل فيها إلى رواية أبي حديد «ابنة المملوك»[19]، وربما ليست لها قيمة كبيرة بحد ذاتها باستثناء أنها تبشر بأعمـال قادمة: ثـم أصدر روايتين عـن مصر القديمـة، رادوبيس (1943م) و«كفـاح طيبة» (1944م)، والأخيرة جذبت بشكل خاص اهتمامًا نقديًّا كبيرًا،

وأكـدت أن مصـر أنجبت روائيًّـا له مستقبـل وذا موهبة غـير عادية. وعلى الرغم من أنه خطط في الأساس لكتابة سلسلة من الروايات التاريخية، ولكنه سرعـان، مثل عادل كامـل وعبدالحميد السحار، مـا دار اهتمامه إلى مصر المعاصـرة، وظهرت سلسلة من الأعمال تـدور في أحياء مختلفة من القاهرة، التـي تستكشـف قيمًـا جديـدة في مجتمع متغـير في مصر المعاصـرة. تمتلئ هـذه الروايات بسـكان مختلفين في الشـوارع الخلفية للقاهـرة، وتشمل هذه الروايـات «القاهرة الجديـدة» (1945م)، و«خان الخليلـي» (1946م) و«زقاق المـدق» (1947م)، و«السـراب» (1948م) و«بداية ونهايـة» (1949م). ووصلت هذه السلسلة من الروايات أوجها في «الثلاثية»[20] المشهورة التي أخذت جائزة الدولـة للأدب عام 1957م، والتـي بنيت عليها أولًا وبشكل كبير شهرة محفوظ الدوليـة. كتب العمل في الأصل قبل ثـورة 1952م، ولكنه لم ينشر إلا في (1956 - 1957م). تتحـدث الرواية عن يوميات حيـاة ثلاثة أجيال من عائلة مصرية مـن الطبقة الوسطى الأقل، والتحول من حياة تقليديـة إلى أسلوب حياة أكثر عصريـة في الحقبة ما بـين الحربين العالميتين. وكما هي الحـال مع الروايات السابقـة، الفكـرة البارزة هـي البحث عن معنـى وثوابت خلقيـة، ولكن نجد تلميحًا عن حقبة اضطراب مصر على وشك البدء فيها في نهاية الجزء الأخير مـن الرواية، عندما يذهب كل واحد من الأخوين أحمد وعبدالمنعم في طريقه، أحدهما إلى الجناح اليساري لحزب الوفد والآخر إلى الإخوان المسلمين.

بعد ثـورة 1952م عانى محفوظ كارثةً، جزء منها كان شخصيًّا والجزء الآخر، بلا شـك، كان بسبب الثورة ذاتها، فمنعه ذلك من الكتابة مدة خمس سنوات. وكان هناك انتظـار متشوق لعمله الرئيس الذي نشر أولًا على أجزاء في جريـدة الأهـرام عام 1959م، وهـي رواية «أولاد حارتنـا». وهذا العمل لم

يكن استمـرارًا للأسلوب الواقعي للثلاثية، وبشر العمل بتحول جذري في خط محفـوظ الكتابي، وعكس هذا العمل همومًـا معاصرة، وألمح إلى هموم الجيل المقبل من الكتاب. والعمل، أيضًا أكثر أعمال محفوظ إثارة للجدل، في جوهره هو عمل رمزي ممتد، ويجمع المؤلف فيه قصص خطأ آدم وشخصيات موسى وعيسـى ومحمـد - عليهـم السـلام -، ويجوس في موضوعـات ذات علاقة بالبحث عن العدالة الاجتماعية ووجود الله ودور الدين في العالم الحديث[21]. وأثـار العمل احتجاج رجال الدين المحافظين الذين قاموا بمقارنة بسيطة بين شخصيـة الجبلاوي والـذات الإلهية، ومنع العمل في مصـر، ولكنه نشر على هيئـة كتاب في بيروت عـام 1967م، وعاد النقاش على الفكـرة الجدلية لهذا العمـل عـام 1988م حين آزر محفوظ علنيًّـا المؤلف سلمان رشـدي بعد نشره روايتـه آيـات شيطانيـة، وأيضًـا في تسعينيـات القرن العشريـن حين هوجم الكاتب، وجرح في الشارع من قِبل مسلمين متشددين.

قدم رد فعل المحافظين تجاه رواية «أولاد حارتنا» لمحفوظ تذكيرًا مفيدًا بمـدى حريـة التعبير في مصـر المعاصـرة، ولا يمكن الحكم علـى هذا العمل بأنـه ناجح بالمقاييس الأدبية، ومن ثَمَّ فليـس بمستغرب أننا لا نجد استكمالًا مباشـرًا له. وبدلًا من ذلك نجد أن محفوظ بعد خيبة أمله في نظام الضباط الأحـرار التي كانت واضحـة لبعض الوقت، باشر كتابـة سلسلة من الروايات بـدءًا بـ «اللص والـكلاب» (1961م)، وبلغت ذروتهـا في «ميرمار» (1967م)، ويمكـن رؤية هـذه السلسلة علـى أنها سلسلـة متزايدة مـن الرفض، موجهة إلى الطريقـة التي يقود بها النظام الدولة. وتشـترك هذه الروايات في وجود مزيـج واضح من النقـد الاجتماعي المتـواري مع عناصر همـوم أوسع غيبية ووجوديـة موجودة في الشـكل الأدبي مقابلة لسرد توفيـق الحكيم عن فقدانه

إيمانـه بالسلطـة الذي نشـر تحت عنوان «عـودة الوعي» عـام 1974م. وأمتع سلسلـة الروايات هـذه، من وجهة نظري، هي الأولى روايـة «اللص والكلاب» (1961م)، والأخـيرة «ميرامار» (1967م) و«ثرثـرة فوق النيل» (1966م)[22]. والروايـة الأولى، اللص والكلاب، تحكـي قصة خيانة عاطفية وفكرية، وتدور حـول المجرم سعيد، وهو حرامي أطلق سراحه حديثًا من السجن، فبحث عن معنـى لحياته عـبر الانتقام، من خيانـة زوجته مع صديقه الأقـرب، ورابطه الوحيـد مع القيم الإنسانية نراه من خلال واحدة من بنات الليل طيبة القلب، ولكـن الروايـة تنتهي بوابل مـن الرصاص، ويقتـل سعيد برصاص البوليس في المقـبرة. وفي «ثرثرة فـوق النيل» يزداد الإحساس العميـق بالانعزال الذي كان واضحًـا في اللص والكلاب، وفي هذه الروايـة ينتقل المؤلف إلى مجموعة اجتماعية مختلفة، تدور أحداث الرواية في عوامة على النيل، وهو مكان صمم بوضـوح للحد مـن بعد العمـل المكاني، في حـين يسمح بمساحة غـير منتهية مـن النقاش الحاد، وتـدور الرواية حول مجموعة من مثقفـي القاهرة الذين يجتمعـون على ظهر القـارب؛ للاستمتاع بالمخدرات والجنـس. والمزاج العام الـذي تلمـح به الرواية هو العجـز، وعدم القدرة على التأثـير على الأحداث، وتغري الرواية، كما فعل عدد من النقاد على النظر إليها على أنها تنبؤ بنكسة 1967م- ولكـن أيًّا ما كانت جاذبية هـذا التفسير على أي مستوى، لكن العمل له علاقة أعمق بوضع الإنسان بشكل عام. وبالتأكيد، جدليًّا، فإن القدرة على الجمـع بين اهتمامات عالمية مـع اهتمام محلي، هو الذي يسـم أعمالًا معينة لمحفـوظ، ويميزه عن معاصريه، ويبرر حصولـه على جائزة نوبل للأدب عام 1988م.

تنتمـي روايات محفوظ الأخيرة لهذه المجموعة، وأهمية رواية «ميرامار»

(1967م) لا تتبع من كونها استكمالًا لنقد المؤلف لمسيرة مصر الثورية، ولكن لجوانبها البنائية. وبالنسبة إلى المحتوى فإن الرواية تمثل هجومًا واضحًا وغير عادي على اتحاد العرب الاجتماعي الذي يظهر بشكل خاص في شخصية الانتهازي سرحان البحيري، أما بالنسبة إلى الناحية البنائية، فالرواية تستخدم أسلوبًا تجريبيًّا يقوم فيه المؤلف بوصف مجموعة واحدة من الأحداث من خلال أعين أربع شخصيات - وهو أسلوب معروف في الرواية الأوروبية، ولكنه كان نادرًا في الكتابات العربية سابقًا - على الرغم من استخدام فتحي غانم له في روايته «الرجل الذي فقد عقله» (1962م)[23].

ويفترض من الحديث السابق عن مسيرة عمل محفوظ المبكرة والمتوسطة أن يعطينا على الأقل بعض المعرفة عن تطور عمله الأدبي حتى عام 1967م. وبعكس كثير من الكتاب الآخرين فإن روايات محفوظ تبدو أنها تتحرك عبر عدد من المراحل الحذرة: من بداياته بوصفه كاتبَ روايات تاريخية، ثم انتقال عمله إلى مرحلة الواقعية الاجتماعية، حتى يصل إلى ذروته في الثلاثية، ثم تبعها بسلسلة من الأعمال التي كانت فيها الاهتمامات الدينية، والفلسفية، والغيبية المتداخلة مع تعبير عن الإحباط إن لم يكن الاشمئزاز من مسيرة المجتمع المصري بعد الثورة. ومن اللافت للنظر ربما، توقف نجيب محفوظ عن الكتابة تمامًا، كما لاحظنا سابقًا سنوات عدة بعد ثورة 1952م. وعانى الصمت الإجباري الذاتي مدة بعد حرب الأيام الستة عام 1967م، ولم ينشر أي شيء حتى عام 1972م، مع نشر المجموعة القصصية «المرايا» عن شخصيات مصرية مصغرة مرتبة، بغرابة، أبجديًّا، بعد ذلك نشر عددًا من الروايات من بينها، على سبيل المثال، أعمال مثل ملحمة «الحرافيش» (1976م)، و«رحلة ابن فطومة» (1982م)، ولكنه على الرغم من أهمية هذه

الأعمـال بوصفها تصويرًا لبعض الهمـوم البنائية والموضوعية للجيل الناشئ (ليس أقلها عودته إلى الإرث العربي «الكلاسيكي» بوصفه مصدرًا للإلهام)، فـإن معظم كتاباته في المرحلة اللاحقة تُظهِـر إحساسًا خفيفًا بكاتب «متعب» فقد قدرته على الإبهار.

الواقعية الاجتماعية

بـدأ يظهر في تلك الأثناء جيـل جديد من الكتاب الذيـن كانت لهم بصمة مميزة في النثر المصري في أعقاب ثورة 1952م بإصدارات اتسمت بواقعية مميزة في شعار جديد «التزام» وهو شعار استخدم ربما أول مرة نحو عام 1950م ترجمة لكلمـة engagement التـي استخدمها جان بول سارتـر Jean-Paul Sartre - والتي تسربت سريعًا إلى معظم أنحاء العالم العربي. ودفع بها إلى الواجهة الروائي اللبنـاني وكاتـب القصة القصـيرة سهيل إدريس، ظهـر أول عدد من دوريته «الأدب» في ينايـر 1953م، والمعنـى الضمنـي الدقيـق للمصطلـح الذي عانق النظريـة الأدبية والقومية العربية في أنواع مـن التراكيب بناء على استخدام الكاتب له، ونوقش بحماسـ في سلسلة من المقالات في الأدب ودوريات أخرى، واتضحـت سريعًا في هذه النقاشـات «فجوة بين الأجيـال» أصبحت واضحة، تبنـى الكتاب من الجيل الأقدم مثل طه حسـين وعباس محمود العقاد عمومًا موقفًـا ينادي «بالفن من أجل الفـن» في مقابل الكتاب والنقاد «الملتزمين» من الجيل الأصغر.

جاذبية المفهوم السارتيني «الالتزام» بالنسبة إلى الكتاب العرب في هذه الحقبة يعود، شبه مؤكد، إلى الوضع السياسي الذي وجدت مصر نفسها فيه، والبـلاد العربية عمومًا، في نهاية الحرب العالمية الثانية. وألقت كارثة الحرب

الفلسطينية عام 1948م التي أدت إلى قيام إسرائيل ظلالًا على الحياة الفكرية العربية، ولكن هذه الظلال ارتفعت إلى حد ما مع الروح الجديدة من التفاؤل والأمل بالمستقبل، التي تبعت ثورة الضباط الأحرار عام 1952م. ومن شبه المؤكد أن أفضل تجسيد للحالة العامة نجده في رواية «الأرض» (1954م) للروائي المصري «عبدالرحمن الشرقاوي (1920 - 1987م) التي وصفها روبن أوستل Robin Ostle، ولا أعرف على ماذا اعتمد «أفضل عمل عربي روائي حديث معروف داخل الشرق الأدنى والأوسط وخارجه»[24] (والعمل في الحقيقة معروف لمعظم العرب عبر فيلم يوسف شاهين المنتشر أكثر من الكتاب ذاته). وتقع أحداث الرواية في بدايات ثلاثينيات القرن العشرين خلال حكم الديكتاتور إسماعيل صدقي، وتصف الرواية سلسلة من النزاعات بين سكان قرية على الدلتا مضطهدين والسلطة، أحد النزاعات عن محاولة لإبعاد الفلاحين عن المياه التي يحتاجون إليها للري، في حين هناك نزاع آخر عن طريق خطة إقطاعي محلي لشق طريق عبر أراضي الفلاحين. ومن خلال الرواية، يعطينا المؤلف صورة عن عدد من «أنواع» سكان القرية - مدرس المدرسة والتاجر الصغير، والعمدة والإمام... إلخ - وتزداد واقعية الوصف باستخدام اللهجة العامية المصرية الحيوية للحوار. وللرواية أهمية من وجهة نظر بنائية، فهي مقسمة إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول والثالث؟ يرويهما طالب عائد من القاهرة إلى الريف؛ لقضاء الإجازة الصيفية، وفي المقابل، يعود الجزء الرئيس الثالث؟ إلى سارد خارجي أكثر تحفظًا، إضافة إلى أن للعمل أهميته؛ لاستخدامه المقارنة التاريخية - لوجود المقابلة في الأعمال المتقدمة والمتأخرة[25] - للتعليق على التطورات السياسية والاجتماعية المعاصرة، فعلى الرغم من أن الشرقاوي كان يكتب ظاهريًا عن أحداث في ثلاثينيات القرن العشرين، كان أيضًا في الوقت نفسه يعبر من خوف مكبوت

مـن مسيرة التطورات تحـت حكم الضباط الأحرار. وكمـا لاحظنا، فإن هذا الأسلـوب يمثل عادة طريقة واضحة، ولكن فعالة في تجنب انتباه الرقيب ليس فقط في مصر، ولكن في العالم العربي ككل.

ولسـوء الحـظ، وعلـى الرغم مـن استمـرار الشرقـاوي في كتابة ثلاث روايـات «قلوب خاليـة 1957م، والشوارع الخلفيـة، 1958م، والفلاح 1967م»، فإنـه لم يستطـع أن يكرر نجاح روايته «الأرض» في التقاط الحقبة القصيرة للتفاؤل التي أعقبت ثورة الضباط الأحرار عام 1952م، وبدا بعد مدة أن هذه الروايـات تحولت إلى مجرد دعايـة. وأمتع هذه الروايات الثلاث هي بلا شك رواية «الفلاح»، وتقع أحداثها - بعكس سابقتيها، بعد الثورة، ويبدو فيها تبخر تفاؤل «الأرض» للأبد[26] ويعكس تطور موقف الشرقاوي كما سنرى في الفصل المقبل، في هذه الناحية، مواقف جيل كامل من الكتاب.

ولم يكـن الاتجاه نحو «الواقعيـة» و«الالتزام» خلال هـذه الحقبة خاصًّا بالروايـة أو مصر فقـط، فقد امتد تأثـيره بشكل أو بآخـر إلى النثر والشعر والمسرح عبر البلاد العربيـة، وحلت محل «الرومانسية» بوصفها صيحة لتلك الحقبـة، وكانت فكرة لا يمكـن لأي كاتب أن يتجاهلهـا في خمسينيات القرن العشريـن وستينياتـه، بغض النظـر عن تحفظهـم، وحتى كتـاب من الجيل القـديم مثل توفيق الحكيم ويحيى حقي ومحمود تيمـور شعروا بواجبهم نحو التفكير في «الروح الجديدة للعصر» في أعمالهم. في تلك الأثناء، كان يتحرك للمقدمـة جيـل جديد من الكتاب، من مصر وأماكن أخـرى، الذين لم يكونوا يشاركون الجيـل السابق توقعاتهم، وتعكس أعمالهـم واقعًا معاصرًا بطريقة أكثر مباشرة، ومن بين الكتاب المصريين البارزين لهذا الجيل المسرحي وكاتب القصـة القصيرة يوسـف إدريـس (1927 - 1991م) الـذي في الأصل تدرب

طبيبًا، وكانت أول مجموعة قصصية له «أرخص ليالي» (1954م) نجاحًا مباشرًا - وتتميز المجموعة بنظرة المؤلف الفاحصة للتصرفات الإنسانية ونقاط الضعف عبر قطاع اجتماعي واسع واهتمامه الواضح بموضوعات قصصه، وبالأهمية نفسها في سياق النقاش الدائر عن مزايا استخدام اللغة العامية في الخطاب المكتوب، وذلك بسبب ما يبدو أنه فريد، وحيوي بشكل نادر، المزج بين «العربية الفصحى» و«العامية» المصرية. وصدر سريعًا بعد «أرخص ليالي»، أربع مجموعات قصصية إضافة إلى عدد من المسرحيات[27] وروايتين: «قصة حب (1956م) والحرام (1959م)»[28] وسرعان ما أسس المؤلف بحق شهرة بأنه أحد الكتاب الرواد في العالم العربي.

ومن بين الكتاب المصريين الذين حصلوا على اهتمام في وقت مقارب ليوسف إدريس نذكر الكاتبة النسائية لطيفة الزيات (1923 - 1996م) التي رددت روايتها «الباب المفتوح» (1960م) إلى حد ما تفاؤل رواية «الأرض» للشرقاوي. وتركز الرواية على قضية تحرير المرأة، وتربط القصة بمهارة بين حكاية فتاة تصل إلى النضج مع البحث عن الاستقلال الوطني. ونشرت الزيات بعد ذلك عددًا من القصص القصيرة، وكثير منها كان مهتمًّا بالقضايا النسائية، ونشرت رواية ثانية بعنوان «صاحب البيت» (1994م)، وسيرة ذاتية في جزء من رواية «حملة تفتيش: أوراق شخصية» (1992م).

وهناك روائي آخر ينتمي للجيل نفسه تُظهِر أعماله بوضوح المنهجَ الملتزم بالقيم الأدبية، وهو الكاتب فتحي غانم (1924 - 1999م) الذي حرر بعض الوقت مجلة «روز اليوسف» التي ذكرناها سابقًا. وتدور أحداث روايته الأولى «الجبل (1959م) في أعالي مصر، وتتناول جانبًا آخر من الصراع بين التراث والحداثة، وفي هذه المرة في سياق إعادة إسكان فلاحي جورنا، وعلى

الرغم من أن الرواية، من وجهة نظر أدبية ليست ناجحة تمامًا[29]، ولكنها مثيرة للاهتمام لموضوعها العام، وأيضًا لاستخدام المؤلف اللهجةَ المحلية في حوار الرواية. والرواية الأنجح والمعروفة للقراء المتحدثين بالإنجليزية عبر ترجمة ديزموند ستيوارت Desmond Stewart لها[30] هي «رباعية» «الرجل الذي فقد ظله» (1960م)، وتغطي الحقبة بين (1922م) إلى (1956م)، وهي مساهمة مهمة في تطور أسلوب السرد في أدب الخيال النثري الحديث، التي استخدم أسلوبها السردي المتعدد وجهات النظر لاحقًا نجيب محفوظ في روايته «ميرامار» (1967م). بعد ذلك نشر فتحي غانم عددًا من الروايات منها «قليل من الحب كثير من العنف» (1985م) التي كان موضوعها سياسة «البا ب المفتوح» لمصر المعاصرة، تردد لبعض من أطلق عليهم اسم «جيل الستينيات»[31]، وربما يمكن القول: إن كتابات فتحي غانم في هذه الحقبة خفتت بفعل أعمال الكتاب الأصغر. وتعاود الظهور منطقة أعالي مصر التي ظهرت في رواية فتحي غانم «الجبل» في كثير من كتابات يحيى الطاهر عبدالله (1938 – 1981م)، وهو نفسه كان سارد المنطقة. بدأ عبدالله الكتابة عام 1961م، ونشر خمس مجموعات قصصية، وثلاث روايات في حياته[32]، وأضاف إلى تأثير كتاباته، التي تدين ببعض الفضل للتراث الشفهي الشعبي، الكثير بسبب عادته في قراءة أعماله في مقاهي القاهرة.

على الرغم من سيطرة نجيب محفوظ على هذه الحقبة، تحت الدراسة، لكن هذه المرحلة شهدت نشاط مناطق أخرى من العالم العربي، التي كان معظمها متلكئًا خلف مصر بالنسبة إلى الكتابة الروائية والقصصية، وبدأت تحتسب لإنتاجها الكبير المنشور من الروايات والقصص القصيرة العربية، خاصة أنه في هذه المرحلة بدأت الكتابة العربية الروائية والقصصية في شمال

إفريقيا (تونس، الجزائر، المغرب) بالوصول إلى معيار واحتلال أهمية تقارن بتلك التي للمشرق مع تخلص دول إفريقيا من السيطرة الفرنسية، وبدأت اللغة العربية في أخذ أهمية أكبر بالنسبة إلى الفرنسية في الحياة الثقافية في المنطقة. وفي تلك الأثناء، وفي الجزء الشرقي من العالم العربي، لبنان، وسوريا، والعراق - جميعها شهدت نشر مساهمات مهمة في تطور الرواية العربية قبل الحرب العالمية الثانية - ورأت استمرارًا لهذا التقليد، كما رأت الحقبة نفسها ظهور جيل جديد أول مرة من الكتاب الفلسطينيين الذين كتبوا في سياق ما بعد حرب 1948م وقيام إسرائيل. والمساحة هنا تمنعنا من التوسع، وتسمح لنا فقط بالحديث عن التطورات الرئيسة، وعن الكتاب الأهم خلال هذه الحقبة. في سوريا ولبنان يبرز روائيان بوصفهما كاتبين أسهما في تطور النثر الروائي خلال هذه الحقبة: السوري - اللبناني حليم بركات (1936 ـ ...م) [33]، والسوري حنا مينا (1924م) وعلى الرغم من أن عمل الرجلين يختلف كثيرًا في بعض الأوجه عن بعضهما، ويعكس خلفيتهما المختلفة وعملهما، لكن كليهما يمثل اتجاهات عامة في تطور الرواية العربية والقصة القصيرة خلال خمسينيات القرن العشرين وستينياته. ولد حليم بركات في سوريا، وتربى في لبنان، وقدم مساهمات مهمة في قطاع دراسات الشرق الأوسط بوصفه عالمًا سياسيًّا واجتماعيًّا، التي تذهب بعيدًا وراء الأدب الروائي، ولكن رواياته وقصصه القصيرة تعكس مواقفه في أعماله غير الخيالية في الاتجاه العربي القومي واهتمامها بالقضايا المعاصرة، خاصة المتعلقة بالفلسطينيين. ومن بين الروايات الست أو نحو هذا العدد التي نشرها حتى الآن تتميز روايتان بشكل خاص «ستة أيام (1961م) وعودة الطائر إلى البحر (1969م)» وكلتاهما تتعلقان بالصراع الخاص بالقضية الفلسطينية.

وعلى الرغم من العنوان «المنبئ» لرواية حليم بركات «ستة أيام»، فإنها لا تعني حرب الأيام الستة عام 1967م، ولكنها تتحدث عن قتال 1948م، وبالتحديد عن جهود سكان دير البحر لمقاومة الحصار الإسرائيلي لبلدتهم. ولا يمكن اعتبار الرواية ناضجة تمامًا من وجهة النظر الأدبية؛ لأنه على الرغم من محاولة المؤلف الجزئية «للدخول إلى عقلية» الفلاحين التي يرسمها، ولكنه لم يستطع مقاومة إغراء إدخال تعليقات طويلة خاصة به. والرواية الأخرى التي سنذكرها «عودة الطائر إلى البحر»[34] تتحدث عن أحداث حرب 1967م، وحصلت على تهليل نقدي أكبر تستحقه، وجريئة من الناحية البنائية، ويقدم الكتاب صورة واضحة لأحداث تلك الأيام القليلة التي بالنسبة للعرب أدت ليس فقط إلى انهزام عسكرى مؤكد أيضًا، لكثير منهم، ظهر أخيرًا كذب الحكومات العربية المعنية، حيث سقطت مناوراتهم لوسائل الإعلام، ونقتبس كلام روجر ألين مرة أخرى Roger Allen «يبرز عمل حليم بركات بوصفه أحد أكثر الكتابات تأثيرًا عن انهيار 1967م ومضامينه و... سوف يبقى معلمًا للخيال العربي المكتوب خلال هذا القرن»[35].

ومقارنة بالمفكر بركات، فإن حنا مينا ينتمي إلى الطبقة العاملة الحقيقية. ولد في اللاذقية على الساحل السوري - وهي بيئة تفسر طغيان ذكر البحر على كثير من أعماله - ووجد حنا أعمالًا في وظائف عدة خلال مراحل حياته المبكرة، فإضافة إلى الصحافة وهو عمل كثيرًا ما كان مصاحبًا للإبداع في العالم العربي الحديث، عمل بعض الوقت حمالًا في الميناء، وحلاقًا، وسجن بعض الوقت بسبب أنشطته السياسية. وتقع أعمال حنا مينا الأولى، الذي يمكن وصفه أحد الروائيين السوريين الرواد، (وربما أعظمهم) في خانة «الواقعية الاجتماعية»؛ لأنها اتسمت بموقف «الالتزام»

نفسه الذي اتسمت به أعمال الكاتب المصري عبدالرحمن الشرقاوي. وهو كاتب غزير الإنتاج، وروايته الأولى «المصابيح الزرق» (1954م) تأخذ فكرتها الرئيسة من الصراع ضد الإمبريالية الفرنسية خلال الحرب العالمية الثانية، ولكنها تصطبغ (مثل كثير من الأعمال «الملتزمة» لذلك الوقت) بفشل في دمج رسالة الكاتب السياسية إلى السرد بشكل مقنع. ويظهر أسلوب المؤلف نضجًا متزايدًا مع مرور الوقت: وروايته الثانية «الشراع والعاصفة» (1966م) كثيرًا ما يناقشها النقاد على خلفية رواية همنجواي «العجوز والبحر»، وهي تكمل موضوع الصراع في الرواية الأولى، مع تأكيد متزايد على صراع الطبقات. وأعماله اللاحقة التي أظهرت تطورًا أكثر، ونضجًا في الأسلوب تشمل رواية ذات سيرة ذاتية، «بقايا سوار» (1974م)[36].

وفي الحقبة نفسها التي شهدت الإصدرات الأولى لحليم بركات، وشهدت أيضًا بداية ظاهرة واضحة التفرد للبنان في العالم العربي الحديث، ظهور مجموعة من النساء الكاتبات اللاتي لم تكن أعمالهن مكتوبة من زاوية «نسوية» متميزة، ولكن أيضًا لها بعض الحق في أن تُعَدَّ «مجموعة ثانوية» داخل الثقافة الأدبية الوطنية لذلك الوقت. سيطرت الحرب الأهلية اللبنانية (1975م- 1990م) على كتابتهن، وسنؤجل الحديث عن «مراكز بيروت،» كما أسمتهن ميريام كوك Miriam Cooke إلى الفصل المقبل، أما الآن فيكفي أن نعرف أن بين النساء الكاتبات اللاتي اشتهرن في هذه الحقبة إميلي نصر الله، التي كانت روايتها الأولى «طيور أيلول» (1962م) في جزء منها سيرة ذاتية، وتتحدث عن قدر النساء اللاتي يردن طريق الاستقلال في العالم الحديث وكوليت خوري وليلى بعلبكي، وأعمالهن جلبت لهن إزعاجًا (وفي حالة بعلبكي السجن) لكسرهن الحدود المقبولة للكاتب - وبخاصة المرأة الكاتبة- للنشر

في ذلك الوقت. ورواية كوليت خوري «أيام معه» (1958) تتحدث عن علاقة حب بين امرأة شابة ورجل أكبر منها سنًّا، يسود اعتقاد بأنه الشاعر السوري نزار قباني[37]، وهو موضوع نجد له ترددًا في رواية بعلبكي «الآلهة الممسوكة» (1960م)، وأشهر أعمال ليلى بعلبكي هي روايتها الأولى «أنا أحيا» (1958م)، التي تتحدث عن مكانة النساء في العائلة، وأيضًا وبالتحديد قصتها القصيرة «سفينة حنان إلى القمر» (1964م)، التي اعتقلت بسببها؛ لتطاولها على الأخلاق العامة[38].

وفي العراق أيضًا ظهر عدد من كتاب النثر المميزين خلال هذه الحقبة، وأشهرهم هو غائب طعمة فرمن (1927م- 1990م) وإسماعيل فهد إسماعيل وفؤاد التكرلي. وترسم مسيرة غائب فرمن جيدًا الحياة القلقة التي يعانيها المثقفون العرب، ليس فقط العراقيون وليس فقط اليساريون، لأسباب سياسية ترغمهم على مثل هذه الحياة في الحقبة اللاحقة للحرب العالمية الثانية: ولد فرمن في بغداد، ودرس في لبنان ومصر قبل أن يعود إلى بغداد بعد ثورة 1958م، وعمل معظم حياته مترجمًا في موسكو، وإنتاجه الأدبي الأول كان قصصًا قصيرة «حاسد الراحة 1954م، ومولد آخر 1960م»، ثم أتبعها بنحو ثماني روايات طويلة نشرها بين الأعوام 1966م و1989م، التي أشهرها «خمسة أصوات» (1967م)، وتحلل وضع المجتمع العراقي في الحقبة التي قادت إلى ثورة 1958م، كما يراها خمس شخصيات مختلفة ينتمون إلى المجتمع البغدادي البرجوازي. والرواية ممتعة ليس فقط من وجهة نظر تقنيتها، ولكن أيضًا لنهايتها التي تصف سعيد، وهو أحد الشخصيات الرئيسة، وهو يودِّع والده قبل سفره خارج الوطن، وهو وضع سيجد صدى له، ليس فقط مع مؤلف الرواية خاصة، بل مع معظم المفكرين العرب لذلك الوقت. وتنتمي إلى الحقبة نفسها الأعمال المبكرة لفؤاد التكريتي، وتمثل روايته القصيرة «الوجه

الآخـر» (1960م)[40] صـورة حيـة للحيـاة البائسة لموظف بسيـط ينوء كاهله بالديـون، ومعظـم اهتمام المؤلف، كما هـي الحال في أعماله الأخـرى، يُعْنَى بتعقيـدات ونفسية العلاقات بين الرجل والمرأة في مجتمع عراقي تقليدي[41]. وهو مؤلف ناجح ودقيق، ونشر عددًا قليلًا نسبيًّا مقارنة بكثير من معاصريه، وتستحق أعمال التكريتي أن تعرف بشكل أفضل ليس فقط في الغرب، ولكن في الأجزاء الأخرى من العالم العربي، ولكن هناك شيئًا واحدًا يحد من انتشاره، وهـو استخدامه المتكرر، مثل غائب طعمة فرمـن، للهجة العراقية العامية في الحوار في كثير من أعماله.

والانشغـال بالمسألـة الفلسطينيـة التي كانـت واضحـة في أعمال حليم بـركات خـلال هذه الحقبة بـدأت أيضًا تنعكس على أعمـال جيل من الكتاب الفلسطينيـين الذيـن كانـت القضيـة الفلسطينيـة لهـم، بمعناهـا الحرفي، مشكلتهـم. وأشهر هذه المجموعة الجديدة من الكتاب الفلسطينيين وأكثرهم موهبـة هـو بلا شك غسـان كنفـاني (1936 – 1972م) الذي جمـع عمله بين الكاتـب المبدع والناشـط السياسي، ودفع الثمن غاليًا حـين اغتيل في انفجار سيـارة، ومن شبه المؤكد أنها كانت بفعـل عملاء إسرائيليين عام 1972م. ولد كنفـاني في مدينة عكا، ومـر بتجربة الغربة المباشرة مثـل الفلسطينيين حين أبعـد مع عائلته عـام 1948م إلى لبنان أولًا ثم إلى سوريـا، حيث درس الأدب العربـي في جامعة دمشق، ثم عمل صحفيًّا في الكويت قبل أن يعود إلى بيروت عـام 1960م، وهناك تابع نشاطـه الصحفي، إضافة إلى عمله متحدثًا رسميًّا لجبهة التحرير الفلسطينية (PFLP) ومحررًا لجريدتها الرسمية «الهدف».

وليـس مستغربًـا الانعكاس المباشر لتجـارب كنفاني علـى أعماله التي تضـم روايات ومجموعات وقصصًا قصيرة ومسرحيـات، ونقدًا أدبيًّا. وعَبَّر

مباشـرة عن تجربتـه الشخصيـة وانتشال عائلتـه من جذورهـا في كتاباته، وعـبر عنها بتأثر ووضوح في قصته القصـيرة «أرض البرتقال الحزين» التي يصف فيها خروج عائلته من منزلهم في عكا عبر الحدود إلى لبنان بعد قيام إسرائيـل عام 1948م. ويتميز كنفـاني عن المؤلفين الفلسطينيين الآخرين من جيلـه بإنسانيته، وبغض النظر عن علاقته القويـة بالسياسات الفلسطينية، فهـو أصـر دائمًا على أنـه روائي أولًا وسياسـي ثانيًا، وأشار كثـير من النقاد إلى وصفـه المتعاطف ليهود إسرائيـل على المستوى الفردي. على سبيل المثال، اللاجئون اليهود المسنون «عائد إلى حيفا» (1969م)، نرى تصويرًا متعاطفًا، وأظهـرت القليـل مـن البربوجنـدا النمطية الموجـودة في كثير مـن الأعمال الفلسطينية الأخرى لتلك الحقبة.

مـر أسلـوب واستشـراف كنفاني بمـا يمكـن أن نصفه تقريبًـا بعملية مستمـرة من التطور خلال مسيرته، كمـا تعكس كتاباته الروائية والقصصية التحـول في حياتـه السياسية نحو توجـه ماركسي متشدد، في حـين بقي فنيًّا مغامـرًا ومبتكرًا حتى النهاية. وأنجح رواياتـه السبع (بقي ثلاث منها لم تُنْهَ حتى وفاته) هي بلا شـك، الأولى «رجال في الشمس» (1963م)[42] و«ما تبقى لكـم» (1966)[43]. الأولى منها - قصة عن «تهريب البشر»، وتصل ذروتها في الموت اختناقًا لمجموعة من الفلسطينيين في مخزن وقود على الحدود الكويتية - العراقية، وتظل من أقوى التعبيرات في كل الأدب الحديث عن القدر السيئ للفلسطينيين، ليس فقط بسبب اضطهاد الإسرائيليين لهم، ولكن لاستغلالهم مـن قبل إخوانهم العـرب، والرواية الثانيـة «ما تبقى لكـم»، تعرض اهتمامًا متزايـدًا بتقنيـة السـرد، ويـتراوح السـرد بين سـرد الشخصـ الأول وسرد الشخص الثالث، في حين يوثق برشاقة تداخل أقدار «أبطال» روايته الخمسة:

حامـد، ومـريم، وزكريا، والوقـت، والصحراء[44]. وبغض النظـر عن التمكن الواضـح للمؤلف من الأسلوب فـإن أعمال كنفاني المتأخـرة خاصة مجموعة القصصـ القصيرة المسماة باسم «أم سعـد» (1969م)[45]، التي تبدو أحيانًا مسطحـة وتفتقر إلى الإلهام، مقارنة بكتاباته القصصية الأولى، وبشكل عام فـإن كنفاني بجمعه بين التعقيـد الفني والتزامه بالقضيـة الفلسطينية يمثل أحـد أنجح المحـاولات للتعامل مع القضيـة الفلسطينية بطريقـة ترفعها إلى اهتمام عالمي.

يمكـن رؤية كتابة مختلفـة إلى حد ما عن التجربـة الفلسطينية للمنفى في حيـاة وأعمال جـبرا إبراهيم جـبرا (1920م- 1994م). ولد جبرا في بيت لحـم، ودرسـ أولًا في القدس قبل أن يبدأ استكمـال دراسته في كامبريدج في إنجلـترا وفي الولايـات المتحدة. وأعماله اللاحقة تشمـل وظائف أكاديمية في القدس وبغداد، وفي مرحلة من المراحل كان موظفًا في وزارة الثقافة والإعلام العراقيـة. وهو فنان غزير الإنتاج ومتعدد المهارات، يعبر عن نفسه من خلال الرسـم ونقد الفن وأيضًا من خلال الكتابـة. وتشمل إصدارات جبرا المكتوبة ليسـ فقـط الروايـات والقصص القصـيرة، ولكـن أيضًا مقـالات وكتابين: سـيرة ذاتية وثلاثة دواوين شعرية، معظمها مـن الشعر المنثور. وكتاباته مثل كتابات كنفاني موشحة بالتجربة الشخصية للمنفى، ولكن بعكس كنفاني فإن شخصياته الباقية في الذاكرة هي لمثقفين، وعادة من الطبقة الوسطى، نمطيًّا منعزلـين عن المجتمع الذي يعيشون فيـه، وتربط أعماله من هذه الناحية بين إصـدارات الجيل «الكلاسيكي» للكتـاب العرب الحديثـين وإصدارات الجيل الـذي بـرز بعـد هزيمة العـرب في الحرب مـع إسرائيل عـام 1967م (سوف نناقش ذلك في الفصل المقبل).

وتضم أعمال جبرا النثرية ليس فقط روايات وقصصًا قصيرة مكتوبة بالعربي، ولكن أيضًا تضم عملًا روائيًّا كتب بالإنجليزية بعنوان Hunters in a Aarrow Street (1960م) ، ورواية «عالم بلا خرائط» (1982م)، وهو عمل مشترك مع الروائي السعودي عبدالرحمن المنيف»[46]. وإذا وضعنا المشهد الأدبي جانبًا، يملك الروائيان حصيلة كبيرة من التجربة المشتركة، ليس أقلها تجربة المنفى، والعمل في مواقع مرتبطة بصناعة البترول. وأشهر أعمال جبرا ربما تكون رواية «السفينة»[47]، التي تقع أحداثها في سفينة سياحية يونانية في البحر الأبيض المتوسط. وتشمل شخصيات معقدة، مفكرين في أغلبهم، وتحل علاقاتهم، مع آمالهم وإحباطاتهم خلال رحلة مدتها أسبوع من بيروت إلى أثينا عبر قناة كورنث، ثم مضايق مسينا إلى نابلس. وأسلوب جبرا السردي معقد ومقنع، ويشمل استخدام العودة إلى الوراء مؤقتًا، والسرد المتعدد (قد يكون متأثرًا بـ «ميرمار» نجيب محفوظ)، إضافة إلى الاستخدام المفرط للرمزية، وإشارات متعددة إلى أعمال أدبية غربية، تعكس الذوق الفكري النهم للمؤلف. ووصف أحد المعلقين حبكة الرواية بأن لها نوعية المسلسلات التلفازية[48]. وعلى الرغم من أن هذا الوصف فيه بعض الحقيقة بالنسبة إلى التحولات المعقدة في العلاقات بين الرفقاء، ولكنه جزئيًّا يخدع بالنسبة إلى نبرة العمل الفكرية والانتظام الأسلوبي، الذي يصل في معظم الأحيان إلى مستوى الشعر المنثور. وأضيفت حدة للعمل بالسرد الطويل لمعركة القدس عام 1948م، ووصف منزل القدس الذي يمثل بوضوح منزل عائلة جبرا في مدينته المفقودة.

ومن بين أعمال جبرا المتأخرة يجب علينا أن نذكر بشكل خاص «البحث عن والد مسعود» (1978م). يواصل المؤلف في هذا العمل تجربته الشكلية

للبنيــة السردية بطريقة تذكر بالتقنية التي استخدمها أحد الرواد المصريين من (جيل الستينيات) صنع الله إبراهيم (1937م) الذي سنناقشه في الفصل المقبــل. وتتحدث رواية «البحث عن والد مسعود» مثل «نجمة أغسطس» لصنع الله إبراهيــم عن جزء من نص، يركــز على العمل ككل. بالنسبة إلى «البحث عن والد مسعود» فإن العمل يتزود من رسالة مسجلة تركها والد مسعود خلفه في سيــارة مهجورة وجدت قرب الحدود العراقيــة - السورية، والشريط سرد مطابــق تقريبًا لأسلوب تيار الوعي الذي عرف به جيمس جويس، وهو يساعد بوصفه نقطة تركيز لأصدقائه الذين اجتمعوا ليندبوا موته - ويعكس كل واحد من أصدقائه جانبًا من الرجل المختفي.

الكتابة العربية الروائية والقصصية في شمال إفريقيا

لم نقل إلا القليل عن المغرب والجزائر وتونس حتى الآن، وفي هذه الدول بقيت الكتابة الروائية والقصصية غير متطورة بشكل واضح مقارنة بأواسط بلاد العــرب حتى خمسينيــات القرن العشريــن على الأقل، وشهــدت تونس، وهي أكــثر دول المغرب تطورًا في المجال الأدبي، في ثلاثينيات القرن العشرين تأسيس عدد من الدوريات الأدبية مثل «العالم الأدبي»، ولكن بغض النظر عن جهــود كُتَّاب مثل علي الدعيجي، وذي المــزاج المختلف قليلًا محمود السعدي، ولكنــه لا يمكن القول: إن الروايــة التونسية لم تنضج إلا في خمسينيات القرن العشريــن على يدي الروائي وكاتب القصة القصيرة البشير خريف (1917 - 1983م)[49]. ومسيرة خريف العمليــة مثيرة للاهتمام؛ لأنه بدأ بالنشر مبكرًا منــذ ثلاثينيات القرن العشريــن، ولكن أحبطه معارضــة استخدامه للعامية التونسيــة في حوارات قصصــه، ولم يبدأ في الظهور إلا متأخرًا في خمسينيات

القرن العشرين مع نشر روايته «إفلاس أو حبك ضربني»، (1958 – 1959م)، وتتحدث الرواية عن النزاع بين التراث والحداثة. وتبع هذه الرواية رواية أخرى تاريخية هي «برقع الليل» (1961م)، وتقع أحداثها في حقبة السيطرة الحفصية على تونس في النصف الأول من القرن السادس عشر، وتدعو القارئ بوضوح إلى إجراء مقارنة بين الغزو الإسباني لعام 1535م والاحتلال الفرنسي لتونس في الزمن المتقدم. والأسلوب يذكر بأسلوب نجيب محفوظ في عمله المبكر «كفاح طيبة» أو بالكاتب الذي جاء بعد ذلك «جمال الغيطاني» في روايته «الزيني بركات»[50]. وأشهر أعمال خريف «الدقلة في عراجينها» (1969م)، التي تقع أحداثها في واحة نفطة في جنوب تونس، حيث ولد المؤلف، وتتحدث عن حياة وحب عائلة تونسية ممتدة بين الأعوام 1910 – 1930م، حيث يصورها المؤلف بتعاطف ولكن ليس بمثالية. وتنقسم إلى فصول، وكل فصل معنون «عرجون»، إذ تصور فروع النخلة فروع العائلة. وعلى الرغم من أن جاذبية العمل كانت محدودة بسبب الاستخدام الكثير للهجة العامية التونسية، لكن الرواية عرفت على نطاق واسع على أنها انتصار للواقعية العربية الحديثة.

وفي الجزائر، وبغض النظر عن اصطخاب النشاط الأدبي في السنوات اللاحقة لنهاية الحرب العالمية الأولى، فإن نمو تقليد أدب متخيل أو روائي قصصي باللغة العربية قيد بازدياد الصراع الدموي، وتعاظم القبضة الفرنسية الظالمة واللغة الفرنسية على الحياة الثقافية للدولة، وبازدياد الصراع الدموي للاستقلال عن القوة الاستعمارية. وكان يسيطر على معظم أدب النثر موضوعات ذات علاقة بحرب التحرير، وبدأ ظهور عدد من الروائيين الذين لهم مكانة دولية، وأشهرهم عبدالحميد بن خدوجة،

وراشد بوجدرة، والطاهر وطار، ولم يحدث ذلك إلا بعد مدة من الاستقلال عن فرنسا عام 1962م.. وفي المغرب، وعلى الرغم من الصراع السياسي والعسكري للاستقلال كان أقل حدة منه في الجزائر، لكن التداخل اللغوي بين العربية والفرنسية (والبربرية) بقي أكثر تعقيدًا[51]. وبغض النظرعن ذلك، يبدو أن تطور أدب النثر العربي في المغرب مر بعملية مماثلة تقريبًا لتلك التي في الجزائر، وظهر أول نثر متخيل مترددًا في عشرينيات القرن العشرين، وبدأت هذه الخطوات الأولى المترددة تثمر في أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته، على الرغم من أن التقنيات الروائية خلال هذه المرحلة بقيت محدودة، واحتفظ معظم الكتاب المغاربة الذين يكتبون بالعربية بالنبرة التعليمية إلى حد ما. وليس لأسباب لغوية بحتة عرف الغرب الكتاب المغاربة الفرانكفونيين مثل إدريس غريبي (1926 ـ ...م) أكثر من زملائهم الذين يكتبون بالعربية. ففي ستينيات القرن الماضي بدأ عدد من الكتاب العرب بالظهور من الذين يحق لهم التصدي للممارسة الكتابية مثل أقرانهم في شرق العالم العربي، ومن هؤلاء عبدالله العروي (1933)[52]، ويشتهر بدراساته الفكرية والتاريخية وأعماله الأدبية، ومبارك ربيع (1935 ـ ...م) وعبدالكريم غلاب (1917 ـ ...م). ومن بين هؤلاء ربما يكون أهمهم هو الاسم الأخير، مقدمًا تصويرًا نابضًا بالحياة لمدى سيطرة الصراع من أجل الاستقلال على إنتاج كثير من كتاب الأدب الروائي والقصصي في المغرب خلال تلك الحقبة: سبعة أبواب (1965م) تعيد قصص السجناء الذين عذبوا لنشاطهم الوطني، في حين تعكس «دفنا الماضي» (1966م) الازدواجيات الاجتماعية والتوتر تحت الاحتلال الفرنسي من خلال رسمه أفرادًا مختلفين لعائلة في فيز.

الخاتمة

واضح أن حديثنا عن الأدب الروائي والقصصي العربي بين، «عودة الروح» لتوفيق الحكيم التي بدأ بها هذا الفصل، وإصدارات مثل «البحث عن والد مسعود» أننا غطينا مساحة كبيرة ليس فقط من ناحية المحتوى الموضوعي وأسلوب السرد، ولكن أيضًا بالنسبة للانتشار الجغرافي للكتابة الروائية والقصصية بأسلوب عربي. وكما لاحظنا، فإن التطورات الأولى كانت محصورة في مصر وبلاد الشام، في حين كتاب المهجر (خاصة جبران خليل جبران) كانوا جسرًا بين الأدب المتخيل الروائي والقصصي الغربي المعاصر، والممارسون الأوائل للفن في الشرق الأوسط، مساهمون بأسلوب مميز في تطورات أدب النثر العربي وأيضًا الشعر العربي. وبعد وفاة جبران عام 1931م بدأت كتابات المهجر تفقد نبضها على الأقل في شمال أمريكا، على سبيل المثال، ميخائيل نعيمة، زميل قريب من جبران، عاد إلى موطنه الأصلي لبنان عام 1932م، ولم يظهر أي كاتب في مكانته في أمريكا خلال الجيل اللاحق. وكما رأينا، بقي المؤلفون المصريون مهمين للتطورات خلال هذه الحقبة من أواخر الثلاثينيات، وبدأ ظهور متزايد لروائيين وكتاب قصة قصيرة في أجزاء أخرى من شرق العالم العربي، وتبعهم لاحقًا كتاب بالعربية من بلاد المغرب.

ولا ضير، فإن الفائز بجائزة نوبل، نجيب محفوظ، عامل رئيس للتطور السريع والجوهري في الرواية العربية خلال هذه الحقبة. وسيطر إنتاج محفوظ على كتابة النثر العربي خلال خمسينيات القرن العشرين وستيناته. وإن أعماله كانت بمنزلة مقياس لتغير الأذواق لمعظم هذه الحقبة. وبحلول ستينيات القرن العشرين كان واضحًا أن المشهد المتفائل بأن مصر الحديثة

بعـد الثورة لم تكن متناغمة مع الزمن نهائيًّـا، وأن الدعوة إلى «التزام» أدبي سياسـي لم تعد رنانـة في كثير إن لم يكـن غالب أرجاء العـالم العربي خلال الخمسينيـات، ولم تعد نافعة بوصفها صرخة لجمع كتاب «متطورين»، وسوف نناقش المزاج الجديد من التشاؤم الذي عادة يـؤرخ له من هزيمة العرب في حـرب الأيام الستة عام 1967م، ولكـن في الواقع قد بدأ في الظهور قبل ذلك. والمضحك، كما سنرى أن هذا المزاج الجديد لم يوقف تطور الكتابة الإبداعية، بل قـاد إلى تفجر من التجريب نجد فيه تأثير النماذج الكلاسيكية، والقرون الوسطـى العربيـة بالمقدار نفسه الـذي نستشعر فيه نمـوذج السرد الطليعي الغربي.

ملاحظات

1 – لمعلومات كاملة عن حياة توفيق الحكيم انظر الفصل العاشر ص 306–293.

2 For a more detailed discussion, see Starkey, *From the Ivory Tower*, pp. 84–92.

3 – نشـر الحكيم أيضا رواية خامسة هي حمـار الحكيم (1940) ولكنها أقل فنيًّا وليس لها أهمية في السياق الحالي.

4 See Starkey, *From the Ivory Tower*, 140–53. The novel has been translated into English by Abba Eban as *The Maze of Justice* (London, 1947; new edn, with foreword by P. H. Newby, London, 1989).

5 Translated by M. M. Badawi as *Sara*, Cairo, 1978.

6 For a discussion of *Millīm al-akbar*, see Kilpatrick, *The Modern Egyptian Novel*, pp. 60–5.

7 Kilpatrick, ibid., pp. 65–71.

8 – انظر الفصل التاسع ص 281.

9 See Trevor LeGassick, introduction to Ihsan 'Abd al-Quddus, *I Am Free and Other Stories*, Cairo, 1978.

10 For a discussion of whom, in particular his novel *Shams al-Kharīf*, see Sakkut, *The Egyptian Novel and Its Main Trends*, pp. 41–5.

11 On al-Sibā'ī, see Gail Ramsay, *The Novels of an Egyptian Romanticist: Yūsuf al-Sibā'ī*, Edsbruk, 1996.

12 Translated into English by Leslie McLoughlin as *Death in Beirut*, London, 1976. The date of publication of this work, after the 1967 catastrophe, places it more properly chronologically in the following chapter.

13 – نوقش في الفصل الرابع ص 127–126.

14 – كتاب رفاعة الطهطاوي تخليص الإبريز في تلخيص باريس انظر ص 54–53.

15 For a discussion, see R. C. Ostle, 'Mahmūd al-Mas'adī and Tunisia's "Lost Generation"', *JAL* 8 (1977), pp. 155–66.

16 – انظر ص 122.

17 For al-Saḥḥār, see Sakkut, *The Egyptian Novel*, pp. 112–13. As Sakkut notes, al-Saḥḥār's contribution to Egyptian life was more significant as a publisher than as an author in his own right.

18 – انظر ص 199.

19 – انظر ص 171.

20 *Bayn al-Qaṣrayn* (1956), *Qaṣr al-Shawq* (1957) and *al-Sukkariyya* (1957). For details of the extensive secondary literature on Maḥfūẓ, see the bibliography below, in particular El-Enany, *The Pursuit of Meaning*, London, 1993, which includes a useful 'Guide to Further Reading'.

21 Translated into English by P. Stewart as *Children of Gebelawi*, London, 1981.

22 Other novels forming part of this sequence include *al-Summān wa-al-kharīf* (1962), *al-Ṭarīq* (1964) and *al-Shaḥḥādh* (1965).
23 Translated into English by Desmond Stewart as *The Man Who Lost His Shadow*, London, 1980.
24 Introduction to *Egyptian Earth*, tr. Desmond Stewart, London, 1992.
25 See below, for example, p. 144, for a discussion of Jamāl al-Ghītanī's *al-Zaynī Barakāt*.
26 For a discussion, see Kilpatrick, *The Modern Egyptian Novel*, pp. 126–40.
27 – انظر ص 309.
28 Yūsuf Idrīs has generally been accounted less successful as a novelist than as a short-story writer and playwright. On Yūsuf Idrīs generally, see Allen, *Critical Perspectives on Yūsuf Idrīs*, Colorado Springs, 1994; D. Cohen-Mor, *Yūsuf Idrīs: Changing Visions*, Potomac, MD, 1992.
29 See Allen, The *Arabic Novel*, pp. 82–4, for a discussion.
30 *The Man Who Lost His Shadow*, London, 1980.
31 – انظر الفصل المقبل.
32 A collection of short stories entitled *The Mountain of Green Tea* has been translated into English by Denys Johnson-Davies, London, 1991.
33 Ḥalīm Barakāt was born in Syria but raised in Beirut, where he subsequently worked as a university lecturer before moving to the US in 1976.
34 Translated into English by Trevor LeGassick as *Days of Dust*, Wilmette, Illinois, 1974. For a discussion, see Allen, *The Arabic Novel*, pp. 114–20.
35 Ibid., p. 120.
36 English version, as *Fragments of Memory*, tr. L. Kenny and O. Kenny, Austin, 1993.
37 For whom, see above, Chapters 4 and 5, pp. 76–7, 91.
38 The latter has been translated into English by Denys Johnson-Davies as 'Spaceship of tenderness to the moon', in *Modern Arabic Short Stories*, London, 1976, 126–34.
39 Sometimes transliterated as al-Tikirlī.
40 Sometimes described (less accurately, in my view) as a short story collection. See, for example, *EAL*, II, 755, s.v. An expanded edition of the work was later published in 1982.
41 See Wiebke Walther, 'Distant Echoes of Love in the Narrative Work of Fu'ād al-Tikirlī', in Allen, Kilpatrick and de Moor (eds), *Love and Sexuality in Modern Arabic Literature*, pp. 131–9.
42 English translation as *Men in the Sun* by Hilary Kilpatrick, Washington, DC, 1985.
43 English translation as *All That's Left to You* by Mayy Jayyusi and Jeremy Reed, Austin, Texas, 1990.
44 See *al-Āthār al-kāmila*, Beirut, 1972, I, p. 159. For a discussion of the novel, see Allen, *The Arabic Novel*, pp. 108–14.
45 Translated as *Palestine's Children* by Barbara Harlow, Washington, DC, 1985.
46 – الفصل المقبل ص 256–255.
47 English translation, as *The Ship*, by A. Haydar and R. Allen, Washington, DC, 1983; for a discussion of the work, see Allen, *The Arabic Novel*, pp. 138–44.
48 Stefan Meyer, *The Experimental Arabic Novel*, p. 37.

49 For general accounts of Tunisian literature, see J. Fontaine, *La littérature tunisienne contemporaine*, Paris, 1991; also, S. Pantuček, *Tunesische Literaturgeschichte*, Wiesbaden, 1974.

50 – الفصل المقبل ص 240-239.

51 On this, see J. Kaye and A. Zoubir, *The Ambiguous Compromise*, London, 1990.

52 Also spelled al-'Irwī, French spelling Laroui.

obeikandl.com